# مقام الإخلاص عند السالكين في الطرق الصوفية وأثره في حياة الإنسان

حساين عويشة

جامعة أبي بكر بلقايدتلمسان

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين

يمثل التصوف نزعة إنسانية، فهو يعبر عن شوق الروح إلى التطهير، ورغبتها في الاستعلاء على المادة، وسعيها الدائم إلى تحقيق الصفاء الروحي والكمال الأخلاقي، فالعبارة الحقيقة لتعريف الصوفية هو تربية النفس وتهذيبها على ضوء من هدي الكتاب وسنة خاتم الأنبياء المرسلين.والتصوف في ذاته ثورة من ثورات الضمير تدفع الإنسان إلى محاولة الكشف عن الذات لتملأ القلب وتنقيه وتصرفه عن الشواغل . فالمتصوفون قوم آمنوا بجهاد النفس والطاعة والإخلاص والإيمان وهي أمور تنشأ عنها صفات وأصول لها نتائج وثمرات ترقى إلى مقام التوحيد و العرفان .والصوفية فناء أكيد في الذات وسمو في المعرفة وخلوص المادة وارتقاء في معرج القرب. فالتصوف كما قال ابن القيم رحمه الله «مبني على الإرادة وهي حركة القلب ولهذا سمي بعلم الباطن »[1].

ونحن هنا نتحدث عن مقام الإخلاص الذي يعد من أهم المقامات عند الصوفيين، وهو خلق من أجل أخلاق الربانيين. فالإخلاص هو إسقاط حظ النفس في العبادة فالمخلص يقوم بالعبادة بعون من الله ومدده ،لذلك يتكلف الصوفية من العبادات ما هو شاق فينفوسهم لأنهم يعلمون أن لاحظ للنفس فيها وهذا بخلاف العامل بحظه حيث يقل إخلاصه ويوكل لنفسه، ولهذا المقال ما وضحه ابن عطاء في حكمه العطائية «ما تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك وما تعسر مطلب أنت طالبه بربك»[2].

فالصوفية يتحملون الشاق في سبيل إرضاء الله، وإبقاء حبل الوصال معه، ولذلك لن يتأتى إلا بمحاربة الكسل والخمول والبطالة وكذا مخالفة النفس و الهوى ولقد عرف الجنيد الإخلاص كمايلي «الإخلاص سر بين العبد وربه لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا يناله هوى فيميله»[3]. لا يتم الإخلاص إلا بتوافر النية الصادقة، وتجريدها لله، وتخليصها من الرغبات والشهوات الذاتية والدنيوية، بمعنى آخر أن يتعلق الإنسان بربه، فيمنحه القوة من الضعف، والأمن من الخوف والغنى من الفقر. فالإخلاص إذا عمل من أعمال القلوب، بل هو مفتاح كل الأعمال القلبية ولا يقبل أي عمل إلا به. فهو المحرك للإرادة الإنسانية ، وهو ثمرة من ثمرات التوحيد الكامل، فبفضل هذا الخلق يتخلص الإنسان من كل رق ويتحرر من كل عبودية لغير الله، ويكون كما أمر الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[4].

ولقد دعا وأكد رجال التربية الروحية وأهل الطريق إلى الله على ضرورة الإخلاص في كل الأعمال يقول الإمام أبو حامد الغزالي في مقدمة كتاب "**النية والإخلاص والصدق**" من ربع المنجيات من "**الإحياء**":«قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان، وأنوار القرآن: أن لا وصول إلى السعادة، إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء[5]، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا[6]﴾ . فالعبادة الخالصة لله تبارك وتعالى تعني أن يكون العبد مخلصا لله تعالى في سره ، وجهره ،لا يبتغي بأي عمل من الأعمال إلا وجه الله تعالى ، فالله عز وجل يبين في محكم كتابه العزيز أن عدم إخلاص العبادة لله ضرب من الإشراك لقوله تعالى ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحد[7]﴾ . و يقول ابن القيم في هذا المقام «أعمال القلوب هي الأصل، وأعمال الجوارح تبع ومكملة، وإن النية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء، الذي إذا فارق الروح ماتت، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح»[8]. أما شيخ الإسلام ابن تيمية فعرف الإخلاص كالتالي «والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب ، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا خبث خبثت جنوده [9]» وقال العز بن عبد السلام «الإخلاص أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده ،لا يريد بها تعظيما من الناس ولا توقيرا ولا جلب نفع ديني ،ولا دفع ضرر دنيوي [10]». وقال سهل بن عبد الله «الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خالصة » وقيل «هو تفريغ القلب لله: أي صرف الانشغال عما سواه وهذا كمال الإخلاص لله تعالى [11]». فعلى العبد أن يبتغي بعمله وجه الله تبارك وتعالى لأجل مصلحة نفسه ، إذ مصلحة نفسه إنما تناط بالإخلاص لله تعالى. فقد أكد العارفون من سالكي الطريق إلى الله تعالى صعوبة الإخلاص ومشقته على أنفس الخلق إلا على من يسره الله تعالى، فالإخلاص هو إفراد الحق سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد، وهو أنه يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه وتعالى دون أي شيء، أو بمعنى آخر سوى التقرب إلى الله تعالى، فالأعمال وإن عظمت فإنما لا تكافئ أدنى نعمة من نعم الله تعالى على عبده ،على أن توفيق العمل إنما هو من الله تعالى، فهو صاحب الفضل أولا وأخيرا .فلا يقتضي العمل في ذاته ثوابا في نظر المخلص، بل يرى التواب إحسانا من الله إليه.

هناك أمور تعين المسلم السالك طريق الله على الإخلاص وهي النية التي هي روح العمل ولبه وقوامه الخالص لله تعالى. كما أن هناك بواعث نفسية، ودوافع روحية، وعوامل فكرية، وجوانب عملية. إذا توافرت وتوطدت فهي جديرة أن تؤثر في عقل السالك وضميره، وتدفعه إلى الأمام في طريق المخلصين، وتساعده على تحرير نفسه ، وتنقية دواعيه من الشوائب الذاتية والدنيوية. وهذا ما عبر عنه الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه "الإحياء" بالعلم الراسخ إذ يوضح للسالك أن الإخلاص كغيره من المقامات أو الأخلاق الربانية مركب ومكون من ثلاثة عناصر وهي – علم،حال، عمل – فكلما قويت المعرفة رسخ العلم، وصل إلى درجة اليقين، كان تأثيره في الوجدان أقوى وأعمق .فالمرء يعرف أولا فيتأثر ثانيا، فيتحرك ثالثا. ولا ريب أن من أعظم البواعث على

الإخلاص صحبة المخلصين الذين نذروا حياتهم لله وباعوا أنفسهم وأموالهم لله ،كذلك بذل الجهد في دفع خواطر الرياء وعدم الركون إليها مع التخلص من حظوظ النفس ، فإنه لا يجتمع الإخلاص وحب المدح والثناء والطمع فيما عند الناس في قلب واحد إلا كما يجتمع الماء والنار. ومما يقوي ذلك كله ويشذ عضد سالك الطريق إلى الله، أن يستعين بالله تبارك وتعالى على أمره كله، فمنه وحده العون وبه التوفيق وإليه يرجع الأمر كله. فالإخلاص كما قال الإمام الغزالي رحمه الله «من سلم له من عمره لحظة خالصة لوجه الله نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسرة تنقية القلب من هذه الشوائب ،بل الخالص هو الذي لا باعث له إلا طلب القرب من الله تعالى»[12].

للإخلاص درجات من الواجب أن يعلمها كل سالك طريق إلى الله

الدرجة الأولى: إخراج رؤية العمل عن العمل، والخلاص عن طلب العوض عن العمل، والنزول عن الرضى بالعمل. فالأولى : يشاهد منة الله تعالى وتوفيقه له على هذا العمل ،أما الثانية : ليعلم أنه عبد محض ، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوض، وأما الثالثة : مطالعته عيوبه وآفاته وتقصيره فيه لقوله تعالى﴿ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء﴾[13]

أما الدرجة الثانية : الخجل من العمل مع بذل المجهود إذ لا يرى العمل صالحا لله مع بذل المجهود لقوله تعالى﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾[14] فالمؤمن من جمع إحسانا في مخافة وسوء ظن بنفسه .

أما الدرجة الثالثة: فإخلاص العمل بالخلاص من العمل ،إلا بنور العلم فيحكمه في العمل حتى لايقع في البدعة.

كما أن للإخلاص ثمار فمنها تفريج الكربات ( قصة الثلاثة –قصة أصحاب الكهف )،الإنتصار،العصمة من الشيطان (قصة سيدنا يوسف)، نيل شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم، ومغفرة الذنوب ونيل الرضوان.

تحقيق الإخلاص عزيز لذا فإنه يحتاج إلى مجاهدة قبل العمل وأثناءه ،وبعده حتى يكون عمل العبد لله فالمخلصون كما ذكر ابن القيم «أعمالهم كلها لله وأقوالهم كلها لله، وعطاؤهم لله ، ومنعهم لله، وحبهم لله ،وبغضهم لله فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله وحده لا يريدون بذلك من الناس جزاءا ولا شكورا ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم ولا هربا من ذمهم، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فالعمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل من شأنهم وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وعطائه ومنه وحبهو بغضه»[15].فلا حياة لعمل إلا إذا كان هناك إخلاص لله عز وجل ويقول ابن عطاء رحمه الله في حكمه «الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها»[16].

إن المتصوفين ساهموا منذ القدم إلى يومنا هذا في بناء الخلق الاجتماعي بإحياء الوازع الديني في النفس والسلوك ومراقبة الله عز وجل في السر والعلن والشعور بالمسؤولية من خلال المحاسبة الدائمة محققين بذلك المثالية الخلقية. فالسالكون طريق الله اليوم لهم أثر كبير في تربية الفرد والجماعة وتنشئة الأجيال دينيا وروحيا وسلوكيا عن طريق التهذيب والتزكية والتنقية بإكسابها أنماطا سلوكية وقيما دينية تتفق مع الآداب والأخلاق الإسلامية، كما أن حاجة الإنسان اليوم للحياة الروحية تفوق في أهميتها ونتائجها حاجاته الجسمية أضعافا مضاعفة. فالمتصوفون يحاولون قدر الإمكان تكوين إنسان جديد في أخلاقه ومثله ومعاملته وعلاقاته وقيمه.فالإنسان كلما ارتفع في المكانة كلما تواضع.فهدف التصوف هو تغير السالك شخصيا ونفسيا وأخلاقيا وسلوكيا.فإذا تحقق هذا فإن التقدم الأخلاقي أكبر طريقة للتقدم الاجتماعي والحضاري لأن الانحلال الخلقي هو أكبر عامل في إعاقة نمو الحياة الاجتماعية.

ونختم هذه المداخلة بحكمة عطائية لابن عطاء الله السكندري رحمه الله «إن الله لا يحب العمل المشترك ، ولا القلب المشترك ، فالعمل المشترك هو لا يقبله، والقلب المشترك هو لا يقبل عليه»[17].

الهوامش:

1) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ( ابن قيم الجوزية)، الجزء الثاني، باب الإرادة ،ص 352
2) الحكمة العطائية الخامسة والعشرون، لابن عطاء السكندري،شرح وتحليل، محمد سعيد رمضان البوطي، المجلد الأول،ص 349
3) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي،ضبط نصه وخرج أحاديثه د محمد تامر، المجلد الخامس،ص 30
4) سورة الأنعام آ 162
5) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، المجلد الخامس،ص 31
6) سورة الفرقان آ 23
7) سورة الكهف آ111
8) بدائع الفوائد لابن القيم، ص149
9) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ص81
10) مقاصد المكلفين لعمر سليمان الأشقر، ص358
11) الإخلاص والشرك بالله،د.عبد العزيز عبداللطيف، ص20
12) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، المجلد الخامس،ص32
13) سورة النور آ 21
14) سورة المؤمنون آ 60
15) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ( ابن قيم الجوزية) الجزء الأول ،ص 104
16) الحكمة العطائية العاشرة، لابن عطاء السكندري،شرح وتحليل، محمد سعيد رمضان البوطي، المجلد الأول،ص 149
17) نفس المرجع السابق ، الحكمة العطائية التاسعة والتسعون بعد المئة، المجلد الرابع،ص 14